مأساة حيفا

(من الحق ان نعت الانجليز بأنهم مثاليون فى بلادهم، مثاليون فى قيم النزاهة ومعايير الخلق وموازين الأنسانية والضمير... ومن الحق أيضا أن نعتهم بأنهم مثاليون فى غير بلادهم مثاليون فى الأنانية والجشع، وضمة الضمير والخلق، وانتفاء العدالة والانصاف...)

أنور المعداوى

لعل الانجليز أكثر شعوب الأرض أنانية وحب نفس؛ والمثل العليا والمبادىء الانسانية وصوت الضمير ليست إلا ألفاظاً جوفاء، لا وجود لمعانيها فى معاجمهم حينما تتعارض مع أنانيتهم ومصالحهم. والانجليزى مفرق فى برودة الطبع والحس والضمير، لا يعرف عدواً أو صديقاً، إنما يجرى وراء رغيف الخبز كما يجرى الكلب الجائع وراء من يحمل الخبز كائنا من كان.

ولعل أكثر الناس إحساسا بهذه المعانى ذلك النفر من الشباب العربى الذى تعلم فى معاهد الانجليز — ولا ندرى أكان ذلك لسوء حظهم، أم لسوء حظ الانجليز — ورآهم فى صور مزيفة من المثل العليا والديمقراطية الكاذبة فى بلادهم. أن هذا النفر من الشباب الذين تتلمذوا على الانجليز وتثقفوا بثقافتهم لا يؤمنون بديمقراطية الانجليز ومثلهم العليا. انهم على النقيض من ذلك يرونهم محرومين من هذه المعانى حتى فى بلادهم. هنالك الحواجز الفولاذية بين الطبقات فى المجتمع: سيد وعبد، نبيل وخادم، تعليم محتكر لطبقة الحاكمين وتعليم لطبقة المحكومين. والقسوة والفظاظة والظلم ليست إلا صورة ثابتة لا تتغير فى أخلاق الانجليز فى تاريخهم الحافل بالسيرة الحسنة فى أرلنده والهند والسودان ومصر وفلسطين، وفى كل مكان عاقب الله الناس بوجودهم فيه. أسمعت عن التاريخ بالفندال والهون والبرابرة الذين عاثوا بالحضارة الإنسانية فدمروها فى مطلع التاريخ الوسيط وطمسوا معالمها؟ إنهم لا يزالون يعيشون بكل ما فيهم من قسوة ووحشية وهمجية فى جلود الانجليز. ثار الأرلنديون على الظلم زمن حكم الملكة اليصابات ابنة هنرى الثامن فأرسلت إليهم جيشاً لإخماد الثورة، وحينما وصل إلى مسمعها الفظاعة التى تقشعر من هولها الابدان والتى اقترفها الجيش مع الأرلنديين بكت تلك الملكة وقالت كلمتها الخالدة: (حسبت أننى أرسلت إلى أرلندا مخلوقات يتحرك فيها الشعور الانسانى، ولم يدر بخلدى أن الانجليز ذئاب مفترسة جائعة لها جلود بنى الانسان). وذلك (ورن هاستنج) حاكم الهند العام الذى كان يؤجر الجيش البريطانى للفتك بالناس وتدمير حياتهم وإشاعة الذعر والهلع بينهم، وان كانوا اصدقاء للانجليز!

لقد عاش كاتب هذه السطور بين الانجليز فى بلادهم، وخارج بلادهم فعرفهم حق المعرفة، ورأى وسمع واختبر وخرج من كل ذلك برأى صائب ونتيجة صحيحة، ذلك أن الانجليز هم الأنجليز فى بلادهم وخارج بلادهم. فالذهب لا يكون ذهبا فى مكان ما ثم إذا انتقل إلى مكان آخر اصبح حديدا. هذه خرافة اثارتها الدعاية الانجليزية لتستر خزيها واثمها واجرامها فى بقاع الدنيا، وإذا استمعت إلى الانجليز فى بلادهم وسألتهم الرأى الصحيح فى (انهم مثاليون فى قيم النزاهة ومعايير الخلق، وموازين الإنسانية، والضمير ...) لشكوا فى ذلك كثيرا، ولحسبوا أن غيرهم المقصود بهذه النعوت.

والانجليزى إنسان شرس، متوحش الطبع، وقد زيف ظاهره ببرودة مصطنعة وتباله مقصود، يخيل لمن يراه أنه قديس من القديسين. وهو فى بلاده مخلوق تافه حقير، وخارج بلاده إله يجلس على قمم الأنام يحرم ويعطى، يرفع ويخفض، يذل ويعز. وهو فى الحالتين المخلوق الذى يحمل بين جنبيه قلبا من الصوان ونفسا متعطشة للدماء.

ويحدثنا علم النفس أن الحياة لا تجمع بين قويين، فإذا كنت قويا بدا لك ذلك الانجليزى هزيلا حقيرا ذليلا، وإذا ظهرت أمامه بالضعف — فالويل لك — انه يتقلب عليك فى طرفة عين وكأنه وحش مفترس ينهش احشاءك بالظفر والناب. وهو إذا ادبرت عنه تبعك، وإذا اقبلت عليه ادار ظهره إليك. هذه حقيقة لم يفهمها رجال السياسة عندنا — وهل عندنا رجال

سياسة ! — وقد فطن إليها اخصامنا فاستفادوا من ذلك وخرجوا بالغانم لأممهم وقضاياهم

* * *

نتنقل بعد ذلك إلى صورة رفيعة لعدالة الانجليز ونبل ضمائرهم وسمو اهدافهم ، وهي صورة من مأساة فلسطين . لا تتسع هذه المقالة للتفصيلات التي لا تسعها المجلات . وإنما نرسم بعض الخطوط الرئيسية رسماً سريعاً لتعين القارىء على فهم المأساة التي تقدمها مثلا على عدالة الانجليز .

حلم هرتسل في أواخر القرن التاسع عشر برجوع اليهود إلى أرض الميعاد ، واستحال هذا الحلم على يد حايم وايزمان — المحاضر في جامعة منشستر عام ١٩١٧ إلى وعد بلفور ذلك الوعد الذي يجمع بين الماء والنار : يعطي العرب الأمان والاستقرار في فلسطين ، ويمنح اليهود دولة بكل مفهوم معاني الدولة وراء كلمات كاذبة سطرت في ذلك الوعد للخداع والتضليل . ذكر السر هربرت صموئيل — أول مندوب سام يهودي على فلسطين في مذكراته — أن اليهود طالبوا بوطن روحي وأن الانجليز اصروا على إعطاء دولة يهودية ، وقد احتج عقلاء اليهود على هذا الكرم البريطاني لعميق اعتقادهم أن انجلترا لا تحفظ الود لإنسان في الدنيا ، وأنهم بذلك إنما يدبرون كارثة رهيبة لليهود مجتمعين في مستقبل قريب أو بعيد .

وأقبل اليهود في ظل الحراب البريطانية ، والعدالة الكسونية ، والقوانين الظالمة ، والبطش والجبروت والارهاق بما لم يدر في خلد محاكم التفتيش — أقبل اليهود ومعهم الاسلحة ، وراحوا يشيدون التكنات الحربية والمعاقل باسم المستعمرات ، ويملأونها بالأسلحة ، ويؤسسون المصانع الفتاكة لإنتاج الأسلحة الخفيفة ، وراح الانجليز يدربون جيشاً سرياً قوياً من اليهود ، حتى إذا ما تم كل ذلك أرادوا أن يجربوا بأس ذلك الجيش ، فغضوا الطرف عن إرهابية اليهود وتساهلوا حتى قتل الارهابيون زهرة شباب الانجليز . ولما برهن ذلك التلميذ النجيب على جدارته ودعه الأستاذ الماكر وتركه يحل المسألة بالطرق التي درب عليها ، وبعد أن وضع في يديه جميع الحلول .

وتقع مدينة حيفا على سفح جبل الكرمل على خليج عكا ، وقد بنى الانجليز حوضاً هائلا أصبح ممراً لتجارة الشرق والغرب ، وانتهت إليه أنابيب الذهب الأسود من العراق يتكرر ويمد الدنيا بالوقود .

وبنى اليهود على سفح الكرمل وقته أحدث مدينة وأجملها بالقياس إلى أحدث المدن العالمية سموها (هدار كرمل) . وأقام الانجليز في ذلك الجبل المطل على الميناء تحصينات هائلة من مدفعية ثقيلة للمحافظة على المرفأ ورد الغزاة .

واختار الانجليز أن تنسحب جيوشهم من مرفأ حيفا وأخذوا يتجمعون من أنحاء فلسطين ويركبون البحر ، وأخذوا منطقة واسعة حول الميناء وحولوها إلى ثكنات تعج بالجنود والعتاد .

وقبل انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في الخامس عشر من شهر أيار عام ١٩٤٨ باسبوعين أو ما يقرب من ذلك — راح الانجليز يسلمون لليهود المراكز الستراتيجية المهمة قبل انسحابهم منها .

ومدينة حيفا — عروس البحر الأبيض المتوسط التجارية — كانت غاصة بالعرب وتجارتهم ، وكان يسكنها مالا يقل عن ثمانين ألفا منهم . وكانت البضائع المكدسة على أرصفة الميناء للتجار العرب لا تقل أثمانها عن عشرين مليونا من الجنيهات ، وكان العرب يملكون في تلك المدينة من نقود ومتاع ومجوهرات بما تقدر قيمته بثمانية مليون من الجنيهات .

وأقبل المساء — ذات ليلة — وأقفل العرب حوانيتهم — وقد كان كاتب هذه السطور شاهد عيان في تلك الأمسية — وعادوا إلى منازلهم وناموا آمنين ، لأن الجيش البريطاني بكل قوته يجاورهم في الميناء .

وفي الساعة الرابعة صباحا أو ما يقرب من ذلك ، سلم الانجليز لليهود المواضع الحربية المهمة التي كانوا يحتلونها في المدينة وعلى جبل الكرمل بكل مافيها من عتاد ، وانسحبوا سراً في هدوء تام إلى منطقة الميناء وجلسوا يشاهدون التمثيلية .

وأوعزوا إلى اليهود ، فراحت عشرات الألوف منهم ، وقد حملت الأسلحة الفتاكة والأوتوماتيكية ، تشد أزرها المدفعية الثقيلة التي وضعت لرد الغزاة عن الميناء — راحت المدفعية الثقيلة